الفصل الرابع

الحداثة والمجتمع في مصر - استكشاف لآفاق المستقبل

د. هدى محمد أحمد سلام(*)

في خطاب الاحتفال بتسليم جائزة نوبل للآداب ٨ ديسمبر عام ١٩٨٨ يقول أديبنا الكبير نجيب محفوظ "إنه يفخر بكونه ابن حضارتين تزوجتا في عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا. أولاهما عمرها سبعة آلاف سنة وهي الحضارة الفرعونية وثانيتهما عمرها ألف وأربعمائة سنة وهي الحضارة الإسلامية"[1]. ثم يقرر محفوظ أنه بعد أن ولد في حضن هاتين الحضارتين ورضع لبانهما وتغذى على آدابهما وفنونهما ارتوى من رحيق الثقافة الغربية "الثرية الفاتنة" ومن وحي ذلك كله بالإضافة إلى "شجونه الخاصة" نـدت عنه "كلمات" هي أعماله التي استحقت الجائزة.

ويؤكد البروفيسور "ستور آلين" Sture Allen عضو الأكاديمية السويدية في خطابه الذي ألقاه في نفس المناسبة بالنيابة عن لجنة جائزة نوبل:

إن الأعمال الأدبية لنجيب محفوظ من رواية وقصة قصيرة هي وليدة المحيط الثقافي الذي ينتمي إليه المؤلف العظيم، و أن هذه الأعمال قد حققت معايير الامتياز على المستوى العالمي لأنها نتجت عن الامتزاج بين التراث العربي الأصيل والتأثير الملهم للثقافة الأوروبية، بالإضافة إلى الموهبة الأدبية المتميزة[2]

Through [Mahfouz],in the cultural sphere to which he belongs, the art of the novel and the short story has attained international

---

(*) قسم اللغة الإنجليزية وآدابها ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

(١) راجع: خطاب الاحتفال الذي كتبه نجيب محفوظ وألقاه نيابة عنه في احتفال الجائزة الأديب المصري محمد سلماوي في:

http://www.nobelprize.org/literature/laureates/1988/mahfouz-lecture

(٢) راجع: خطاب تقديم جائزة نوبل والذي ألقاه البروفيسور آلين ستور عضو الأكاديمية السويدية في:

http://www.nobelprize.org/literature/laureates/1988/mahfouz-presentationspeech.

http://www.nobelprize.org/literature/laureates/1988/mahfouz-presentationspeech.

standards of excellence, the result of a synthesis of classical Arabic tradition , European inspiration and personal artistry.

وإذا انتقلنا إلى أديب عالمي آخر ينتمي بأعماله وجنسيته إلى مجتمعات الجنوب، و هو الأديب العلمي الكولومبي الأصل جابريل جارثيا ماركيز، و الحاصل على جائزة نوبل في الأدب لعام ١٩٨٢ لوجدنا أن نفس معيار الجمع بين المحلية المفرطة والانفتاح على نماذج الأدب على المستوى العالمي هو أهم ما يميز أعمال ماركيز وذلك حسب ما جاء في خطاب الاحتفال بالجائزة المقدمة من اللجنة المانحة، فقد جاء في الخطاب :

إن أدب أمريكا اللاتينية قد بات يشغل مكانا مرموقا في الحياة الثقافية في عالمنا المعاصر، [و ذلك بفضل أعمال أدباء مثل ماركيز]، حيث تتفاعل في أعمالهم تيارات أدبية عديدة من مصادر محلية وعالمية مختلفة تشمل الأدب الشعبي والقصص الشفهي، ومقتطفات وذكريات من التراث القبلي تعود إلى سكان أمريكا اللاتينية الأصليين، ومؤثرات من الحضارة الأسبانية[الممتزجة بالحضارة العربية الإسلامية من خلال عصور الأندلس]، بالإضافة إلى نماذج من الأدب الأوروبي الحديث، وقد أسهمت كل هذه المكونات في إعطاء الأدب الأمريكي اللاتيني نكهة متميزة مفعمة بالحيوية[1] .

Latin American literature has won acclaim in the cultural life of today. Many impulses and traditions cross each other. Folk culture, including oral storytelling, reminiscences from old Indian culture, currents from Spanish baroque, influences from European surrealism and other modernism blended into a spiced and life-giving brew.

الحداثة شأنها شأن الأدب وشأن التجارب الإنسانية جمعاء لابد أن تزداد ثراء وقيمة عندما تنهل من الينابيع المتعددة للحضارات البشرية، والحداثة في أبسط معانيها هي تطوير نمط الحياة بحيث يتناسب مع ما وصلت إليه البشرية من تقدم في شتى النواحي، وعلى هذا فهي ليست خيارا قد يؤخذ به أو لا يؤخذ وإنما هي شرط أساسي للاستمرار لأن من لا يتقدم لابد أن يتقهقر . وترجع نشأة مصطلح "الحداثة ـ **Modernity** " إلى التقدم والتحديث الذي صاحب الثورة الصناعية في أوروبا في القرن الثامن عشر . ومن السهل أن

(١) راجع : خطاب الاحتفال بتسليم جائزة نوبل للكاتب الكولومبي جابرييل جارثيا ماركيز في عام ١٩٨٢ ولقد ألقى الخطاب البروفيسور لارس جيلينستين **Lars Gyllensten** عضو الأكاديمية السويدية .

http://www.nobelprize.org/literature/laureates/1982/marquez-presentationspeech.

نتفق مع لوى دوبريه Louis Dupree في قوله إن "القدرة التجديدية للحداثة قد جعلتها، وهى التي بدأت كظاهرة محلية في العالم الغربي تصبح مشروعا عالميا قادرا على فرض مبادئه النظرية والعملية على أكثر الحضارات انعزالاً [1]

Its innovative power made modernity, which began as a local western phenomenon ,a universal project capable of forcing its theoretical and practical principles on all but the most isolated civilizations"[1].

ولكن يجب علينا الحذر من الانزلاق وراء التبسيط المتعمد ورؤية نموذج الحداثة الغربية في صورة كتلة واحدة متجانسة، فالواقع أن هناك العديد من التيارات المتعارضة داخل النموذج الواحد. ففي الجزء الأول من كتاب "التغيير الاجتماعي والحداثة" [2] **Social Change and Modernity "** يوضح رون آيرمان **Ron Eyerman** في فصل بعنوان "الحداثة والحركات الاجتماعية **Modernity and Social Movements** " أن مفهوم الحداثة يبرز الفارق بين ما هو حديث "**Modern**" وما هو تقليدي **"Traditional "** و أن من أهم خصائص الحداثة الغربية تغيير نظرة الفرد في المجتمعات الصناعية الحديثة إلى ذاته بحيث يصبح أكثر حرية وأكثر غربة في آن واحد، أي أن الفرد الحديث في المجتمع المدني يصبح قادرا على التحرر من سلطة "الموروث المانح للهوية – **established identity"** **giving authority**ولكن هذه الحرية مصحوبة بدرجة من فقدان الهوية **identity crisis**تجعل الآثار الإيجابية والسلبية للحداثة حسب النموذج الغربي متلازمة. ويعتقد آيرمان أنه في الوقت الذي تحرر فيه الفرد الحديث من قيود الموروث بحيث ينظر إليه دائما على أنه أكثر حرية من أسلافه وأنه يتطلع دائما إلى آفاق المستقبل لا إلى أحداث الماضي، فإن مجتمعات الحداثة قد اضطرت إلى خلق أنظمة جديدة تحد من حرية الأقوال والأفعال، بحيث أصبح الهدف الأساسي لعلماء الاجتماع والنفس والسياسة والاقتصاد هو البحث في تحقيق التوازن بين حرية الفرد والمسئولية الجماعية **individual freedom and collective responsibility**.

---

(١) راجع:

Dupre, Louis. Passage to Modernity: An Essay in the Hermeneutics of Nature and Culture. New Haven: Yale UP, 1993.

(٢) راجع:

Eyerman, Ron. "Modernity and Social Movements". Social Change and Modernity. Eds. Hans Haferkamp and Neil J. Smelser. Berkeley: U of California P, 1992.

و غني عن القول إن العالم الآن يزخر بنماذج متنوعة للحداثة، فالحداثة الغربية كما أسلفنا هي نماذج متعددة وغير متجانسة، و توجد "حداثات " أخرى إن صح التعبير في دول مثل ماليزيا والصين والهند وباكستان وتركيا والبرازيل وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

وآخر ما نحتاجه في اللحظة الراهنة هو النقل الحرفي من أي من هذه النماذج الحداثية وإعادة إنتاجه، و إنما المطلوب هو فرز مفردات هذه النماذج ثم إجراء عملية تنقيح واختيار واستكمال ما يناسب منها، و مزجها بأفضل عناصر تراثنا الحضاري الأصيل ومن ثم فإن الأطروحة الأولى التي تقدمها هذه الورقة مؤداها أن نموذج الحداثة الملائم للمجتمع المصري هو في الأساس نموذج يجمع بين أفضل ما في التراث من جوانب أصيلة من جهة وأهم ما أفرزته نماذج الحداثة المتعددة غربا وشرقا من جهة أخرى.

أما الأطروحة الثانية فتناقش أساليب مقابلة التحديات التي تواجهها المشروعات الحداثية المتتالية في التاريخ المصري الحديث ومحاولة تفادي أخطاء الماضي من أجل الوصول إلى الاستغلال الأمثل لمواردنا المتاحة خاصة الموارد البشرية، مع الاستفادة من التجارب التنموية للدول ذات الكثافة السكانية المرتفعة، وذلك بهدف بناء مستقبل أفضل.

شهد التاريخ المصري الحديث عددا من محاولات التحديث، لعل أبرزها هو وضع أسس الدولة الحديثة في عهد محمد علي في بداية القرن التاسع عشر (١٨٠٥-١٨٤٨) ولقد تأثر محمد علي بنتائج اللقاء الحضاري بين مصر وأوروبا زمن الحملة الفرنسية(١٧٩٨-١٨٠١)، وانبهر بالنموذج الأوروبي الحداثي في كافة المجالات من تعليم وصناعة وزراعة وتجارة إلى بناء الجيش والأسطول وطرق المواصلات البرية والبحرية. . . . . الخ، وشهدت كل هذه النواحي طفرة تقدمية كبيرة كانت هي النواة لبناء مصر الحديثة، وللأسف جاءت "تسوية لندن في ١٨٤٠ " ـو هي المعاهدة التي تمت بين الدول الأوروبية الكبيرة والدولة العثمانية بحجة الحفاظ على توازن القوى في المنطقة من التهديد الذي يشكله ازدياد قوة مصر ونفوذ محمد علي ـ لتضع حدا ليس فقط لأحلام محمد علي التوسعية وإنما ـ وهذا هو الأهم ـ للمشروع الحداثي الأكبر في تاريخ مصر الحديث.

و بعد سنوات حاول الحفيد إسماعيل استكمال مشروع جده محمد علي، وكان حلم إسماعيل يتلخص في أن يستقل بالحكم عن الدولة العثمانية وأن تصبح مصر قطعة من

أوروبا، ومن أجل تحقيق هذين الهدفين وقعت مصر فريسة للديون الطائلة التي اتخذتها الدول الأجنبية ذريعة للتدخل في شئون مصر حتى انتهى الأمر باحتلال إنجلترا لمصر عام ١٨٨٢.

و رغم كل السلبيات التي تنتج من وقوع شعب ما تحت الاحتلال الأجنبي وحرمانه من الاستقلال والسيادة فوق أرضه، فإن الحركة الوطنية المصرية والتي تأثرت وتفاعلت مع نماذج للحركات الوطنية الحديثة في بعض بلدان أوروبا مثل أيرلندا بل والحركات الليبرالية والعمالية في إنجلترا ذاتها، كان لها الفضل في نمو الوعي الوطني وبناء الشخصية القومية المصرية وخلق المناخ المناسب لحدوث تطورات حقيقية في مصر على المستوى السياسي مثل دستور ١٩٢٣، و على المستوى الاقتصادي مثل بنك مصر والمشروعات الاقتصادية الوطنية التي صاحبته، وعلى المستوى الاجتماعي مثل تبلور طبقة متوسطة قوية تجمع بين التعليم على النمط الأزهري والأوروبي والحفاظ على قيم التراث المصري.

و جاءت ثورة ١٩٥٢ بمبادئها الستة لتقدم نموذجا تحديثيا يغلب عليه النمط الاشتراكي في عهد الرئيس جمال عبد الناصر ونمط اقتصاديات السوق الحرة في عهود السادات ومبارك.
ومن الممكن اعتبار المبادئ الستة للثورة نواة مشروع حداثي يتضمن :

١ـ القضاء على الاستعمار وأعوانه.
٢ـ القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم.
٣ـ القضاء على الإقطاع.
٤ـ إقامة عدالة اجتماعية.
٥ـ إقامة جيش قوي.
٦ـ إقامة حياة ديمقراطية سليمة.

ومن المفارقات أن جميع هذه المبادئ قد تحققت بدرجات متفاوتة باستثناء المبدأ السادس الخاص بالحياة الديمقراطية السليمة، فبعد مرور أكثر من نصف قرن على الثورة لإنزال تجربتنا الديمقراطية تبحث عن أنسب صورة لها ولعل الإصلاحات الأخيرة المتمثلة في تعديل المادة ٧٦ من الدستور (رغم التشديد) والخاصة بتداول السلطة وإجراء انتخابات مجلس الشعب في مناخ من الحرية والشفافية تبشر بالخير في هذا المجال.

و من الإنصاف أن نشيد بالإنجازات التي تمت في المشروعات الحداثية المختلفة في مصر على مدار القرنين السابقين، إلا أن الحصاد الختامي لهذه المشروعات ونحن الآن في بداية الألفية الثالثة في عصر العولمة والقرية الكونية الناتجة عن ثورة الاتصالات هو حصاد تغلب فيه السلبيات على الإيجابيات ولعل من أهم المظاهر السلبية في المجتمع المصري المعاصر ضعف الولاء والانتماء، واتساع مساحة الرفض الصامت واللامبالاة، وتمزق الطبقة المتوسطة التي تشكل الوعاء الأخلاقي للمجتمع، و انتشار ونمو الفساد على كل المستويات بكل ما يصاحبه من مشاكل اجتماعية واقتصادية.

إن السبيل لإعادة تشكيل الذات وترتيب الأوضاع في العالم المجهول لهذه الألفية الجديدة يتطلب:

١ـ تشخيص العلل وراء ما حدث من قصور في المحاولات التحديثية السابقة.

٢ـ استكشاف آفاق جديدة للمستقبل من خلال وضع خطة عمل يتم فيها تلافي أخطاء الماضي مع الموازنة بين الأهداف المراد تحقيقها والإمكانيات والموارد المتاحة.

وسوف نخصص الصفحات التالية لبحث هذه النقاط.

تعتبر عوامل الضغط الخارجية التي تعرض لها المجتمع المصري بشكل أو بآخر وبالتزامن مع محاولات التحديث في العصور السابقة من أهم أسباب فشل تلك المحاولات في تحقيق التقدم والرفاهية المنشودين. ولقد تراوحت هذه العوامل الخارجية من ممارسة ضغوط مباشرة وغير مباشرة على القائمين بإدارة أمور الحكم في البلاد، إلى احتلال صريح، إلى زرع إسرائيل في قلب الوطن العربي، إلى حروب متتالية في المنطقة لعل آخرها هي تلك الحرب الدائرة منذ الغزو الأمريكي للعراق. ومع التسليم بخطورة العوامل الخارجية وآثارها السلبية على محاولات التحديث، فإن اعتبار هذه العوامل السبب الأوحد أو حتى الأهم وراء تخلفنا هو تزييف صريح لواقع الأمور وهروب من تحمل المسئولية عما وصل إليه الحال في مصر.

فلو نظرنا إلى النماذج التحديثية الناجحة في عالمنا المعاصر لوجدنا أنه لا توجد دولة من الدول لا تواجه مشاكل خارجية وضغوطًا من المجتمع الدولي، إلا أن هذه الدول لم تجعل من مشاكلها عائقا يحول بينها وبين الوصول إلى أعلى درجات التقدم. فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد الصين تعاني من مشاكل حقيقية مع اليابان مستعمر الماضي وتايوان الجزء

المنفصل عنها، بالإضافة إلى الضغوط المتكررة من العالم الغربي، تارة تحت شعار حقوق الإنسان وتارة أخرى تحت شعار خرق اتفاقيات التجارة العالمية، لمحاولة الحد من صحوة التنين الأصفر. وبالمثل نجد كلا من الهند وباكستان قد وصلتا إلى درجة من النمو الاقتصادي والتكنولوجي تتضاءل بجوارها مستويات العالم العربي عموما ومصر تحديدا. أيضا هناك تركيا الواقعة تحت ضغوط من الدول الأوروبية بالإضافة إلى مشاكلها الداخلية مع الأكراد والصراع العلماني الإسلامي، و من الواضح أن كل هذه الدول وغيرها تمضي قدما ولا تسمح لهذه المشاكل بإعاقة نموها المنشود.

و من ثم فلا بديل عن المواجهة الصريحة مع النفس بحثا عن موطن العلة الحقيقي الذي يكمن تقديريا في النقاط التالية:

١ـ غياب الديمقراطية الفعلية وما يتبع ذلك من غياب الشفافية والمساءلة الحقيقة وتحمل المسئولية عن سياسات وممارسات عديدة كان لها أكبر الأثر في أن نصل إلى ما نحن فيه.

٢ـ غياب الرؤية الموضوعية الشاملة المطلوبة لوضع مشروع حداثي متكامل للدولة، وعلى الرغم من وجود العديد من المراكز البحثية تحت مسميات مختلفة، فإن الأبحاث التي تجرى إما أن تكون أبحاثا نظرية غير قابلة للتطبيق أو أن تكون أبحاثا محدودة الأفق تتناول جانبا وتغفل عن العديد من الجوانب التي قد تفوقه أهمية، و حتى في الأحوال النادرة التي تقدم فيها دراسة تطبيقية متكاملة يقوم بها فريق من الخبراء المعنيين كل في مجال تخصصه فإنها لا تلبث أن تضيع في غياهب نظام بيروقراطي فاسد وعقيم.

٣ـ عدم تطور الجهاز الإداري والبيروقراطي في الدولة وذلك على الرغم من الزيادة الهائلة في أعداد الجامعات والمراكز البحثية التي تقوم بتدريس العلوم الإدارية الحديثة على المستوى الجامعي ومستوى الدراسات العليا. ومرة أخرى يقودنا إلى هذا الفجوة بين النظرية والتطبيق على أرض الواقع.

٤ـ سيطرة النزعة الفردية على كافة أشكال النشاط البشري، بحيث تصبح الأنانية والمصلحة الشخصية للاستمرار المحرك الأساسي، بينما تضعف روح الفريق والعمل الجماعي. وهذه العلة الأخيرة قد تكون سببا من أسباب التخلف وقد تكون نتيجة لافتقاد القدوة على مستويات كثيرة وانتشار نماذج الكسب السريع غير المشروع والإحساس بعدم

جدوى بذل المجهود والتفوق، وكلها من الظواهر السلبية التي يعاني منها المجتمع المصري.

ونخلص مما سبق أن تحقيق طفرة حداثية بمجتمعنا يتطلب الآتي:

١ـ الإصلاح الحقيقي في مختلف جوانب الحياة سياسية واقتصادية واجتماعية ويأتي إصلاح وتطوير الجهاز الإداري (قانونا وأفرادا) على رأس القائمة لما له من أهمية قصوى تجعله مقدمة ضرورية للتحديث، ولعل ما حدث من إصلاح سياسي في السنتين الأخيرتين يكون مقدمة تتبعها خطوات إصلاحية حقيقية سريعة.

٢ـ نشر وتفعيل ثقافة الاعتدال والوسطية التي طالما تميز بها المجتمع المصري والإسلام، والتي تعتبر صمام الأمان الوحيد ضد نزعات التطرف والانعزال والانفصال، وضد ثقافة العنف التي لا تعرف سبيلا للتعبير عن الرأي إلا باستخدام العنف والقوة.

٣ـ ويقع عبء نشر ثقافة الاعتدال على المؤسسات الفكرية وفي مقدمتها الجامعات ومراكز الأبحاث ومؤسسات المجتمع المدني ووزارات التعليم والثقافة والإعلام وهيئات الشباب والرياضة.

٤ـ وضع خطة شاملة للنهوض بالمجتمع تكون بمثابة مشروع قومي يوجه طاقات الشباب بصفة خاصة إلى المجالات المناسبة لتحقيق الأهداف الفردية والقومية على حد سواء.

٥ـ الاهتمام بالجانب التطبيقي وإعادة اكتشاف الدراسات ذات القيمة والتي سبق تقديمها وظلت حبرا على ورق فوق الأرفف وفي الأدراج، مع وضع الصالح منها موضع التنفيذ.

٦ـ إحياء حركة الترجمة من وإلى اللغات المختلفة، وذلك بغرض الانفتاح على التجارب التنموية والتحديثية للعالم أجمعه شرقه وغربه.

و فيما يلي نموذج مصغر لخطة تحديثية تصلح للتطبيق على مستوى أقسام تدريس اللغات الأجنبية وآدابها في جامعاتنا المصرية:

١ـ تحديد دقيق للأهداف المطلوب تحقيقها، مثل إعداد خريجين قادرين على العمل بمجالات الترجمة المختلفة... أدبية. علمية. قانونية. تجارية.... الخ. أو خريجين قادرين على العمل بمجال تدريس اللغة الأجنبية للمصريين أو تدريس اللغة العربية للأجانب، أو

بمجال الإعلام بمختلف تخصصاته أو خريجين للعمل بالبعثات الدبلوماسية بالخارج، وغيرها من المجالات المطلوبة.

٢ـ تحديد الشروط الواجب توافرها في الدارسين الملتحقين بهذه الأقسام من حيث الكفاءة اللغوية والاستعداد الأكاديمي، و ذلك من خلال عقد امتحانات تحريرية وشفوية قبل الالتحاق بالقسم، مع مراعاة النزاهة التامة في سير الامتحانات ونتائجها.

٣ـ مراجعة شاملة للمناهج بحيث تتوافق مع الأهداف ومع المستوى العلمي للدارسين.

٤ـ مراجعة طرق التدريس والتقويم المتبعة وتطويرها تماشيا مع أحدث ما وصل إليه العالم من وسائل تعليمية وبصرية، مع الاهتمام بتوفير العدد الكافي من الأجهزة المطلوبة لمعامل اللغات.

٥ـ الاهتمام بالمكتبات الملحقة بأقسام اللغات وتوفير الكتب الحديثة والدوريات المتخصصة بالاتفاق مع دور النشر العالمية لضمان توريدها بصفة منتظمة حتى يتوافر للدارسين أحدث المطبوعات في مجال التخصص لتمكينهم من متابعة الدراسة والبحث، و يجب توفير قسم خاص بالمكتبة للأسطوانات المدمجة، ومراعاة اتصال المكتبة بشبكة الإنترنت وبنظم الاتصال الحديثة مع المكتبات الأخرى، مثل اتفاق نظام "الاستعارة بين المكتبات **interlibrary loan system**" وغني عن الذكر ضرورة توفر قاعات للمطالعة وآلات التصوير حديثة داخل المكتبة لخدمة المترددين عليها (سوف يتم تخصيص بحث منفصل لدراسة هذا البند لما له من أهمية قصوى).

٦ـ الاهتمام بالدراسات المقارنة في مجال الأدب واللغويات بحيث تكتمل للدارس القدرة النقدية للمقارنة بين نواحي الامتياز والقصور والتشابه والاختلاف بين الثقافات المختلفة لشعوب العالم.

٧ـ إصلاح النواحي الإدارية داخل أقسام اللغات، شأنها في ذلك شأن الجهاز الإداري بصفة عامة، لأنه وكما أسلفنا الإدارة الناجحة من أهم عناصر النجاح في أي نوع من أنواع النشاط.

و في الختام يجب أن تهدف أقسام اللغات في جامعاتنا، مثلها في ذلك مثل كافة الأقسام في التخصصات الأكاديمية المختلفة، إلى تخريج دفعات تمتلك قدرات ومهارات تنافسية تؤهلها للتنافس مع نظرائها في سوق العمل العالمي.

و نذكر في هذا الصدد المشروع التعليمي الرائد في الهند والذي نجح في تخريج أعداد كبيرة من المتخصصين في علوم الحاسب الآلي على أعلى مستوى من المهارة التقنية مما جعل دول العالم خاصة ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية تتسابق على استقطابهم. ومن الجدير بالذكر أن دولة الهند قدمت نظاما متكاملا يسمح لهؤلاء الخريجين بالعمل في الخارج مع بقاء الصلة العلمية مع الوطن الأم بحيث تتحقق الفائدة المستمرة لكل الأطراف بدلا من الشكوى من هجرة العقول إلى الخارج.

بدأت هذه الورقة البحثية بكلمات أديب مصر العظيم نجيب محفوظ، وقد يكون من المناسب أن تختم بكلمات عالم مصر العظيم د. أحمد زويل العالم الكيميائي الذي حصل على جائزة نوبل في الكيمياء في عام ١٩٩٩، حيث إن العلم والأدب طالما كانا جناحي المعرفة الإنسانية.

و تتضمن السيرة الذاتية لأحمد زويل، الذي سجلها في كتاب رائع تحت عنوان "رحلة عبر الزمن"[(1)]، مشروعا حداثيا متكاملا يصلح للتطبيق في مصر وغيرها من الدول النامية، حيث إن كاتب السيرة يمثل نموذجا فريدا من اندماج الثقافتين العربية والغربية.

و سوف نختار من خطاب د. زويل الذي ألقاه في المأدبة التي أقيمت على شرف حصوله على الجائزة والذي يعرف باسم **Banquet Speech**، هذه الكلمات التي توجه رسالة ملؤها الحماس والأمل والرغبة في إفادة شباب مصر وتشجيعهم على الجمع بين نماذج الحداثة المتنوعة- وهو الطرح الأساسي الذي تقدمه هذه الورقة - من أجل بناء المستقبل.

يقول د. زويل:

لو وجدت جائزة نوبل قبل ستة آلاف عام، في زمن الحضارة المصرية القديمة، أو حتى منذ ألفي عام، عندما كانت مكتبة الإسكندرية وجامعتها الشهيرة منارة تشع العلم والحضارة للعالم أجمع، لكان من المؤكد حصول المصريين على النصيب الأعظم من الجوائز في مختلف المجالات. وعلى النقيض، نجد أنه في العصر الحديث قد تضاءل نصيب مصر، بل والمنطقة العربية ككل، بالنسبة لعدد الجوائز الممنوحة خاصة في مجالات العلوم والطب، وذلك على الرغم من أن الحضارة العربية الإسلامية هي التي قدمت للعالم كبار العلماء

(١) راجع:

Zewail, Ahmed. Voyage Through Time: Walks of Life to the Nobel Prize. Cairo: AUC Press, □□.

والأطباء والفلاسفة الذين ما تزال مؤلفاتهم موجودة في مكتبات أعرق الجامعات الأوروبية، ونذكر منهم ابن سينا وابن رشد وجابر ابن حيان وابن الهيثم وأسماء عديدة أخرى. واليوم يملؤني الأمل وأدعو مخلصا كل الأجيال الشابة في وطني وفي الدول النامية إلى اعتبار هذه الجائزة في مجال العلوم ملهما لهم ودليلا على أنه ليس هناك مستحيل وأننا نستطيع أن نصل إلى المكانة العالية التي سبقنا إليها الأجداد[1].

If the Nobel Prize had existed 6000 years ago when Egypt's civilization began, or even 2000 years ago, when the famous library and university of Alexandria were established, Egypt would have scored very highly in many fields. In recent times, however, Egypt and the Arab World, which gave to science Ibn Sine (Avicenna), Ibn Rushed (Averroes), Ibn Hayan (Giber), Ibn Haytham (Alhazen), and others have had no prizes in science or medicine. I sincerely hope that this first one will inspire the young generations of developing countries with the knowledge that it is possible to contribute to world science and technology.

(٢) راجع: الخطاب الذي ألقاه د. زويل في المأدبة التي أقيمت على شرف جائزة نوبل في ستوكهولم في:
http://www.nobelprize.org/chemistry/laureates/1999/zewail-banquetspeech.

وفي إيجاز نقول :

يطرح البحث نموذجا للحداثة يصلح للتطبيق في مصر ويجمع بين أفضل ما في التراث من جهة مع مختارات منقحة مأخوذة من النماذج الأخرى في العالم شرقا وغربا من جهة أخرى .

و ينطلق هذا الطرح من مبدأ التواصل الدائم للحضارات ، هذا التواصل الذي كان دائما سمة أساسية من سمات التاريخ البشري في كل العصور وخاصة في العصر الحديث فبالرغم من أن نشأة الحداثة كمصطلح هو مفهوم يشير عادة إلى التحديث الشامل الذي طال كافة جوانب الحياة سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية في أوروبا في القرن الثامن عشر في أعقاب عصر النهضة ، إلا أنه لا يستطيع أي منصف أن يدعي أن هذه الطفرة الحداثية كانت نتاجا نقيا وخالصا للفكر الأوروبي ، ولا أن ينكر الإسهامات الجوهرية والعديدة التي شاركت بها حضارات أخرى على رأسها الحضارة العربية والإسلامية ، بالإضافة إلى الحضارات الفارسية والهندية والصينية وغيرها ، ناهيك عن الحضارات الأوروبية القديمة مثل الإغريقية واليونانية والتي كان لها تواصل موثق ومثبت مع الحضارة الفرعونية .

و على هذا يتضح أن أكبر نموذج حداثي في العالم حاليا ـ وهو النموذج الغربي ـ قد استمد حيويته الفائقة من جذور وأفرع عديدة تمتد عبر الزمان والمكان ، وأن نمو هذه الحداثة الغربية في أوروبا وفي توقيت معين بالذات كان نتاج عدد من الظروف المواتية في ذلك المكان وذلك الزمان تحديدا ، وليس نتاج عبقرية خاصة تتمتع بها أجناس بعينها وتفتقدها أجناس أخرى .

و يستعرض البحث بصورة مختصرة أهم المحاولات التي مر بها المجتمع المصري خلال القرنين الماضيين منذ عهد محمد علي مؤسس دولة مصر الحديثة وحتى الآن ، مع التركيز على الإنجازات التي تحققت وأوجه القصور التي تسببت في نواحي الفشل في تلك المحاولات .

ثم يقدم البحث تصورا مبسطا لنموذج حداثي تطبيقي(قابل للنقد والتعديل للأفضل) يصلح (برأي الكاتبة) لمصر ، يتم فيه تفادي النواحي السلبية في النماذج السابقة ، مع التركيز

على الإيجابيات، ويعتبر هذا النموذج المقترح أن الإصلاح في كل المجالات هو بمثابة المقدمة الحقيقية والضرورية لأية تجربة تحديثية.

و ينتقل البحث إلى نموذج تحدثي في مجال تدريس اللغات الأجنبية وآدابها، باعتباره مجال تخصص كاتبة هذه السطور، تطبق فيه العناصر المختلفة التي تتماشى مع النموذج التحديثى الشامل للمجتمع المصري ككل، ويراعي فيه تمكين مصر وشبابها من التفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى ونحن نعيش في زمن الألفية الثالثة.

و يختار البحث المقدمة والخاتمة اللتين تعبران عن النموذج الحي لأطروحته الأساسية، حيث يبدأ باقتباسات من كلمات أديبنا الكبير نجيب محفوظ في مناسبة الاحتفال بحصوله على جائزة نوبل ١٩٨٨ ويختتم باقتباسات من عالمنا العظيم د. أحمد زويل في مناسبة حصوله على جائزة نوبل في الكيمياء عام ١٩٩٩. ولأن العلم والأدب كانا ولا يزالان هما جناحا المعرفة الإنسانية بحيث لا نستطيع الاستغناء عن أحدهما، ولأن كلا من محفوظ وزويل قد أرجع الفضل في تميزه ووصوله لمكانة عالية في مجال تخصصه إلى حقيقة كونه ابن حضارات الشرق والغرب على السواء. يرى البحث في هذين النموذجين فاتحة خير وطاقة نور وأمل وقدوة لشبابنا هم في أشد الحاجة إليها في هذا العصر المليء بالإحباطات والتحديات.